«الأصداء» وهو يتحدث عن بداية الوتنية بين العرب من أن عمرو بن لحى الكاهن كان له رئى من الجن، فقال له يوماً «عجل بالمسير والظعن فى تهامة، بالسعد والسلامة» فقال عمرو. «خبر ولا إقامة»، فقال الرئى: «ايت صنم حدة. تجد فيه أصناماً معدة فأوردها تهاماً ولا تهاب. ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب» وهو خبر يعطينا صورة لهذا التداخل أو الاختلاط بين السجع والرجز الذى نظن أنه يرجع إلى بداية ظهور الوتنية فى الحريرة العربية، وليس يعنينا أن يكون هذا الخبر موضوعاً أو مصنوعاً فهو - على كل حال - يصور ما استقر فى أذهان الرواة عن أسلوب سجع الكهان فى هذا العصر البعيد.

ظهرت هذه المحاولات فى هذا التاريخ البعيد، ثم أخذت تستقيم على ألسنة الشعب العربى حين ارتبطت بحياته الشعرية، وفى أغلب الظن أن هذا الارتباط كان عن طريق الغناء، وربما كانت البداية مع حداء الإبل حين أحس الحداة ذلك الاتساق بين حركة أخفاف الإبل على الرمال، تلك الحركة الرتيبة المطردة، وبين موسيقى الرجز التى تتوالى وحداتها الصوتية فى رتابة واطراد.

وأخذت الإيقاعات الموسيقية تتضح، وأصبحنا أمام تطور من الرجز مستقيمة الوزن تكاملت لها قيمتها الصوتية، واعتدلت فيها مقوماتها الموسيقية، وفى النصوص الكثيرة التى احتفظت بها المصادر العربية نرى صورة قوية لهذا التطور الموسيقى الذى أصاب الرجز على ألسنة الشعب العربى الذى يملك القدرة الفطرية على هذا التطوير، والذى يسرت له سليقته السليمة تقويم ما اختل من قيمه الصوتية، وإقامة ما انحرف من مقوماته الموسيقية.

على هذا النحو استقامت الصورة الموسيقية الدقيقة لبحر الرجز واستقر القالب الصوتى له. ثم ساعدت طبيعته الموسيقية، وسهولة النظم فيه، وقرب متناوله من الشعراء، وطواعيته للتشكيل، على ذيوعه وانتشاره حتى أصبح الفن الشعبى الذى يتغنى به أفراد الشعب العربى فى حياتهم اليومية.